الطفل والأفكار

الكاتب: مالك بن نبي

مقالات ثقافة

١- الطفل يتدرج في عوالم ثلاثة: الأشياء- الأشخاص- الأفكار.
٢- الأفكار وسيلة اندماج الفرد في المجتمع وتتقايس فيه العوالم الثلاثة جنبًا إلى جنب وتتفوق إحداها على الأخرى وفق نمط الثقافة.
٣- الشيخوخة انحدار من عالم الأفكار إلى الأشخاص إلى الأشياء {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا}.
٤- الفرد يدفع ضريبة اندماجه الاجتماعي وكلما كان المجتمع مختلًا في نموه ارتفعت قيمة الضريبة.

لا يستطيع الإنسان المنعزل أن يعيش طويلًا في وحدته؛ دون أن يصنع لنفسه وفي فترةٍ من الزمن محدودة بالضرورة، التجربة الأزليّة التي بها يتكيّف المجتمع مع بيئته (1).

فإمّا أنْ تبدأ مغامرتُه انطلاقًا من صفحة بيضاء خاليةٍ من الأفكار مثل (حي بن يقظان)، وإما انطلاقًا من صفحة بيضاء خالية من الوسائل والأشياء إذا كان قد حمل معه (عالم أفكار هـ) كما فعل (روبنسون كروزو) قبل غرق سفينته.

ولكن مهما تكن درجةُ تجريده ونموذج الثقافة التي يمثّل، فإنّ نشاطه يخضع دائمًا في ضمانِ بقائه لتطوراتٍ نفسيَّةٍ- بدنيَّةٍ، نرى مثلها في سائر أشكال النشاط البشريِّ.

والشكل الأبسط لهذا النشاط يتجلَّى في عملِ الحرفيِّ المنكبِّ على عمله والمقصُّ في يده، بالحارث المنحني على محراثه، بالجنديِّ المسلَّح ببندقيته.

الإنسان والآلة

في سائر هذه الحالات، فالعمل: الحرفي، الزراعي، أو الحربيُّ يتمّ انطلاقًا من عنصريْن ظاهرين: الإنسانِ والآلةِ.

لكن هذين العنصرين يحجبان حقيقةً أخرى أكثر تعقيدًا، ذلك أنَّ العمل لا يتم فعليًّا إلا في ظروفٍ تتوافق بالضرورة مع سؤالِ (كيف) و (لماذا).

https://murabet.com

فنحن لا نعمل كيفما اتَّفق حتى لا يصبح العمل مستحيلًا. ولا نعمل بغير سببٍ حتى لا نمارس عملًا عابثًا.
فالعمل لا يمكن إذن أن يتحدَّد خارج خطة تحتوي إضافة إلى عناصره الظاهرة، عنصرًا فكريًا مُمَثلًا لمُسَوِّغاته، ولأنماطه التنفيذية التي تلَخِّص كل تقدم اجتماعي وتقني، لمجتمع ما، بما يُميِّزه عن غيره من المجتمعات.
وباعتباره عامل تمييزٍ في المستوى البشريِّ؛ فإنّ عنصر الفكرة ألْهم (ماركس) هذا التأمل الرائع:

> ((إن ما يميز من الوهلة الأولى أسوأ مهندس معمار عن أمهر نحلة هو أنَّ المهندس يبني الخليَّة في رأسه قبل أن يبنيها في القفير، وأن العمل ينتهي إلى نتيجة موجودة مسبقًا فكريًا في خيال العامل)).

هكذا إذن تتضمن عناصر العمل في نهاية التحليل ثلاث فئاتٍ: فئة الأشياء، وفئة الأشخاص، وفئة الأفكار.
وجميع الخصائص الاجتماعيّة والاقتصادية والسياسيّة لعملٍ ما تطْبع بالضرورة في مجموعته الخاصة؛ التي حيكت هن خيوط تلك الفئات الثلاث على الشبكة العامة لكل عمل.
هذه المجموعة تكون بسيطة التركيب في حالة الفرد المنعزل. وهي بالضرورة بسيطة؛ إمّا لنقصٍ في الوسائل (في الأشياء) في حال (روبنسون كروزو)، وإمّا لنقصٍ في الأفكار في حال (حي بن يقظان).
ولكن بمقدار ما يندمج الفرد في المجتمع الذي باشر في تقسيم العمل، فإن العنصر الفكريّ يأخذ شيئًا فشيئًا أهميته. وتبدو هذه الأهمية في عملٍ لابدَّ أن يكون متخصصًا، يحترم القواعد، ويراعي الأصول؛ من أجل اندماجه في العمل

https://murabet.com

الجماعي.
أما الشروط الأخلاقيَّة والتقنيّة لهذا الاندماج فتندرج في سياقاتٍ نفسيَّةٍ جسديَّةٍ لا يتم تمثلها بسهولةٍ، كما لاحظ (روبنسون) عند قيامه بصناعة الطاولة.

> الطفل إنسان منعزل

والطفلُ إنسان منعزل في طريقه إلى الاندماج، ولابد له أن يمرَّ بهذه السياقات؛ كيما يحقق اندماجه المناسب. وغنيٌّ عن البيان أن العائلة والمدرسة تساعدانه في ذلك.
هذه المساعدة الاجتماعية تستطيع، بل ويجب أن تعمل بطريقةٍ تختصر وتكمِّل عملية اندماج الطفل، فهي لا تستطيع أن تلغيه.
فلْنتابع ببساطة خطواته كي ندرك مراحل ذلك الاطراد:
عندما يرى الطفل النور؛ تكون الأشياء والأشخاص والأفكار منتظمةً حوله؛ في ثلاثة عوالم غريبةٍ عنه.
فيده بالنسبة إليه شيءٌ. تُسَلِّيهِ كما يسليه المصباح المتدلِّي فوق سريره. إنّها تدعه يخدش خده، وذلك شيء آخر لم يندمج بعد في ذاته.
غير أنه يبدأ على الأقل يشعر حوله بعالم من الأشياء ممثلًا بيده، بأصابعه، بمصاصته، وبالصباح المتدلي فوق سريره.
في هذه المرحلة، ليس لديه بعدُ أيُّ إدراك لعالم الأشخاص، حيث لا يتعرف على وجه أمِّه التي ليست بالنسبة إليه سوى الثدي الذي يغذّيه، شيء يمكن للرضّاعة أن تَحُلَّ مَحَلَّه بسهولة؛ إذا ما افتقد الأم لحادث سوء. إنه لا يتعرَّف على نفسه ككيان مكتملٍ؛ لأنه ليس لديه بَعْدُ أيُّ إحساس محدَّد عن (أناه).
وشيئًا فشيئًا يكتسب خبرة في عالم الأشياء، فبصره يبدأ يتعرف الوجوه.
إنَّه يعرف وجه أمه أولًا بالطبع، ووجه أبيه، ووجه إخوته وأخواته، وهذه الوجوه جميعها تبدأ في أن تشكل من حوله عالم الأشخاص الغريب.
بيد أنَّ اطمئنَانه إلى هذا العالم لم يأخذ مداه بعد، حتى حين يكون له من العمر ثلاث أو أربع سنوات. ويكفي أن ندعه وحيدًا على الرصيف بالقرب من عتبة

https://murabet.com

منزل العائلة؛ لنرى كيف ترتسم في الحال على وجهه علاماتُ كآبة الوحدة التي يشعر بها أمام المارَّة الذين لا يعرفهم.
وحتّى في السنة السادسة؛ يُعَدُّ يومُ دخولِ المدرسة بالنسبة إليه تجربةً قاسية جدًا في عالم كل من الأشخاص غريبٍ عنه. وهو لا يندمج إلا تدريجيًا، وشيئًا فشيئًا، وتبعًا لنقطة تحددها درجة ألفته الاجتماعية، إذ هذه الدرجة تتفاوت بين الأطفال لأسباب لا يمكن حصرها بأجمعها. ولكن يمكن أن نصنفها ربما وفقًا لنظرية (يونغ) في علم النفس بالنسبة لنموذجيها (2).
فالمنفتح يكْتشف عالم الأشخاص بسرعة أكثر من النموذج المنغلق، وهذا الأخير يكتشف ربما بسرعة أكبر عالم الأفكار، ولكن دون أن يختصر المراحل.

اكتشاف عالم الأفكار والأشخاص

غير أنَّ اكتشاف عالم الأفكار يأتي دائمًا بالنسبة لكلا النموذجين بعد اكتشاف عالم الأشخاص.
واطراد اندماج الطفل في المجتمع هو بيولوجي ومنطقي في آن. إنه يشكل على أعمارٍ ثلاثة:
١- العمر الذي يكتشف فيه تلقائيًا عالم الأشياء، وهو يلعب بأصابعه وبمصاصته.
٢- العمر الذي يكتشف فيه تدريجيًا عالم الأشخاص، وهو يتعرف فيه على وجه أمه بادئ الأمر.
٣- العمر الذي يكتشف فيه أخيرًا عالم الأفكار. وهذا الكشف الأخير هو الذي يهمُّنا أن نتناوله هنا بالتحليل.
إنَّنا نعلم أنّ اكتشاف الأشياء عند الطفل إنما يتم بامتلاكها. والرابطة التي تقوم بينه وبينها رابطة غذائية: فهو يحمل الشيء تلقائيًا إلى فمه.
غير أن اكتشافه لعالمِ الأشخاص يتمُّ بمقدار ما يرتبط بها بعلاقات عاطفية ثم اجتماعيَّة.
والأمر نفسه في دخوله عالم الأفكار؛ إذ يبدأ من اللحظة التي يتمكن فيها من تكوين روابط شخصية مع مفاهيم تجريديّة.

https://murabet.com

إنّ علينا أنْ نرى طفلًا يفشل في مسألة صغيرة لنقدِّر المجهود المصحوب باليأس أحيانًا في اقتحام باب هذا العالم.
هذه المأساويات الصغيرة تمرُّ على العموم دون أن تفطن لها الأُسر والمدارس.
غير أنّ الطفل يتذكر أحيانًا أنه بعد أن اصطدم بصعوبة عدة مرات دون أن يقهرها يكشف له يومًا تفكيرُه وعقله سبيلًا لقهرها فيجد الحلَّ وحده.
فهذه اللحظة بالنسبة إليه هي لحظة (أرخميدس)، ويستطيع أن يصرخ مثله (أوريكا)، وتكون هذه اللحظة ما بين السابعة والثامنة من العمر؛ حيث يضع قدمه في عالم الأفكار دون أن يعتمد على أحد.
هذه الخطوة هي حاسمة في اطراد اندماجه الاجتماعي، لأنها تُؤَصله في محيط ثقافيٍّ أصيل يجعل منه (حي بن يقظان) أو (روبنسون كروزو).
فعندما يَعْبُر الطفل عالم الأفكار يضع قدمه في محيطٍ ثقافيٍّ، وأحيانًا في أنظمةٍ إيديولوجية، لها من خصائصها ما يفصل بينها وبين المجتمعات المحايدة أو الخامدة.
هذا التغيير في المستوى النفسي يكشف له عن آفاقٍ جديدةٍ، وأبعادٍ لا تخطر له ببال. وإذ يحوّل هذا الاكتشاف كيانه النفسي؛ فإنّ كيانه الجسديَّ يتحول هو الآخر.
إن للأفكار أثرًا حيويًّا يميز- حتى من حيث المظهر- الشخص الأمِّي من ذلك الذي استعمل الحروف الأبجدية لقراءة فكرةٍ، أو للتعبير عن فكرته.
ينبغي أن نلاحظ هذه الحقيقة بادئ الأمر في عملية اندماج الطفل من أجل أن نستطيع عقد المقارنات الضرورية، مع علامات الطفولية في سن النضج.
إن السمة البارزة لدى طفلٍ في سنيه الأولى هي فمه المفتوح قليلًا، المستعدُّ لتلقف ومصِّ أيِّ شيء. لكن كلما تقدم في السن فإنَّ فمه ينغلق بتأثير دوافع داخليَّةٍ.
ويتوافق هذا التفصيل الجسديُّ مع مرحلةٍ معينة من تطوُّره النفسيِّ، فهذا التفصيل لحظةٌ من لحظات عملية الاندماج، ويمكن أن تتجلى دلالتُه إما بأن نطابقه على لحظةٍ موازيةٍ من عملية اندماج شخص ناضج إذا استطعنا أن نجري مثل هذه التجربة، أو أن نلاحظه بمقارنة بين شخصين بالغَين من أسرةٍ

واحدةٍ أحدهما متعلِّمٌ والآخر أميٌّ.
لقد سنحت لي الفرصة لأقوم بتجربة مع فريق من العمال الجزائريين الأميّين، حين اضطلعت بمهمة تعليمهم القراءة والكتابة في فرنسا عام (١٩٣٨).
وكلما تقدمت التجربة شيئًا فشيئًا والتي تابعتها تسعة أشهر كنت أرى وجوه تلاميذي تتغير.
كانت الوجوه ذات وميضٍ وحشيٍّ، وقد تأنّست تدريجيًّا. لقد اختفى بريقها الحيوانيُّ ليحل محلَّها شيءٌ ما، ينمُّ عن فكرةٍ داخليةٍ، عن حضور فكرةٍ.
من ناحية أخرى، فالشفاه أطبقت أو ازداد تقاربها. الرأس الذي تلقى فكرةً قد شغل عضلات الصدغ؛ التي تعمل كنابض يشدّ نحو الأعلى الفك الأسفل الذي يغلق الفم.
حينئذ تتغيَّر ملامح الوجه بطريقة ظاهرة، يمكن على ما أعتقد قياسها بالنسبة للَّذين يهتمُّون بالعلاقات الجسديَّة النفسيَّة.
وبالإمكان أن نتوصّل إلى الملاحظة نفسها بمقارنة مباشرة بين ملامح وجه أخوين يختلف المستوى الفكريُّ عندهما.
وهذه الحالة مألوفةٌ خاصةً في المناطق الريفية الجزائرية؛ حيث تكون فرص التعليم موزعةً بطريقةٍ غير متساويةٍ، حتى داخل الأسرة الواحدة. فنحن في نجد فيها مثلًا أخوين أحدهما متعلّم والآخر أمِّيٌّ.
صحيح أنه يوجد بينهما التشابه الذي يشير إلى أصلهما الوراثي المشترك، ولكن توجد خارج ذلك فوارق بارزةٌ في النظرات، وملامحِ الوجه، التي تنبئ عن اختلاف في اطراد الاندماج الاجتماعي.

النموذج الريفي والمديني

وبوجه عام ففي سكان بلد ما هنالك النموذج الريفي، والنموذج المديني يميز بينهما علماء الاجتماع ببعض تفاصيل الملبس.
وحتى لو كان رجل المدينة في ملابس ريفيَّة فإنَّه يسهل التعرف عليه إذ يبدو كريفيّ مزيَّفٍ. ورجل الريف في ملابس الأعياد يبدو مدنيًا مزيفًا. والشقيقان من أصل وراثيٍّ واحد وبيئة ريفية واحدة يتمايزان كذلك بعلاماتٍ واضحةٍ جليةٍ

إذا كان أحدهما قد تردَّد إلى المدرسة دون أن يفعل الآخر ذلك، فدرجة اندماج الفرد الذي يضع قدمه في عالم الأفكار تتحدد بهذه العلامات.
على أنه بعد هذه الخطوة الأولى فالاندماج يأخذ مداه باطراد في سائر مراحل الحياة: النضج، والشيخوخة، وما بعد الشيخوخة، لتتحول شيئًا فشيئًا إلى اطرادٍ نحو عدم الاندماج.
ففي الشيخوخة، يبدو الفرد يعكس خط سيره، ويعود القهقرى في مراحل حياته النفسية ويترك على التوالي:
١- عالم الأفكار بفقده كل قدرةٍ خلاقةٍ.
٢- عالم الأشخاص نتيجة اللامبالاة أو النفور.
٣- عالم الأشياء نتيجة الضعف وعدم الإقبال.
وهكذا يرحل أخيرًا عن الحياة في نهاية عملية كاملة، ألمح إليها القرآن الكريم: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} [الروم: ٣٠/ ٥٤].
لكن العوالم الثلاثة هذه تتعايش طوال حياة الإنسان جنبًا إلى جنب مع تفوق أحدها تبعًا للفرد ولنموذج المجتمع الذي يندمج فيه.
وفي المجتمع الذي يدور فيه عالم الأفكار حول محور الأشياء تأخذ الميول الفردية الوجهة ذاتها. ولقد حدث أن سألت طفلًا في إحدى البلاد العربية عما كانوا (يعطونه) في المدرسة ولم ركن استعمالي فعل (أعطى) متعمَّدًا، لكن جوابه العفويَّ كان ذا دلالة ظاهرة فقد أجابني: إنهم يعطوننا بسكويت. ومن الواضح أن معنى (أعطى) عنده يتمفصل بادئ الأمر بعالم الأشياء، حتى حينما يستعمل الفعل في الإطار المدرسيِّ في صيغة سؤالٍ.
وهكذا فالفرد يدفع ضريبة عن اندماجه الاجتماعيِّ إلى الطبيعة وإلى المجتمع.
وكما كان المجتمع مختلًا في نموه ارتفعت قيمة الضريبة

المصدر:
مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي
الإشارات المرجعية:
1. إذا عزل الطفل، منذ ولادته، تصبح إعادة تكييفه مع الحياة الاجتماعية أمرًا بعيد الاحتمال، بل ومستحيلًا. وهذه حالة (الطفل المتوحش) التي قام

https://murabet.com

بدراستها بعض علماء الاجتماع مثل (واطسون Wason(وهنا يعني أنّ موضوع حي بن يقظان مجرّد رؤية فِكريّة.

2. (كارل جوستاف يونغ Carl gustav yung(عالم نفسي سويسريّ (١٨٧٥ - ١٩٦١ م). كان من أتباع (سيجموند فرويد Frtvp(، ثم انفصل عنه سنة (١٩١٣) بعد أن نشر كتاب (تحوّلات النفس ورموزها)، رفض فيه إسناد الطاقة الحيويَّة التي هي في جوهر الحياة البشرية (الليبيدو libido(إلى النزعات الجنسيّة فقط، ورأى فيها طاقة أوَّليَّة وعالمية تأخذ أحد اتجاهين: الاتجاه نحو الحياة الداخلية (iutrovert(، والاتجاه نحو العالم الخارجيّ (extrave(. وهو صاحب نظرية (النماذج المثالية archetypes(، التي تكوّن (اللاوعي الجماعي) والتي تأتي نتيجة التجربة البشرية عبر العصور.

الكلمات المفتاحية:

#مالك-بن-نبي #الطفل-والأفكار

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعنى بالضرورة تزكية الكاتب أو تبنى جميع أفكاره.

https://murabet.com